١٢

المرأة في حياة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي

د. بدرية بنت علي الشعيبية
جامعة السلطان قابوس
سلطنة عُمان
baj1332003@gmail.com

ملخَّص:

يهدف البحث إلى دراسة مدى تأثير المرأة في حياة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ودراسة مدى اهتمام الإمام الخليلي بلعد توليه للإمامة بالمرأة العُمانيَّة في المنطقة التي تشملها إمامته، ودور الإمام في الاهتمام بتثقيفها، وتشجيعها على العلم والمعرفة. وتناول الب حث هذا الموضوع في أربعة مباحث؛ يعنى الأول بتأثير نساء عائلة الإمام الخليلي الخاصَّة في تشكيل شخصيته وتأثيرها عليه، ويتناول الثاني علاقة الإمام الأسرية، ودراسة علاقته بابنته الوحيدة عائشة وزوجتيه، وأمَّا المبحث الثالث فاختصَّ بدور الإمام الخليلي في أثناء فترة إمامته في تثقيف المرأة وتعليمها، واهتم المبحث الرابع بالفتاوى والقوانين التي أصدرها الإمام الخليلي والمتعلقة بالمرأة. وتؤكد الدراسة أنَّ الإمام الخليلي، بوصفه حاكم دولة، كان يتعامل مع النساء في دولته معاملة حسنة؛ فكان يحرص على لقاء النساء والاستماع لهنَّ، والتعرُّف إلى شكواهنَّ أو مطالباتهنَّ. وبلغ اهتمام الإمام بتعليم المرأة، وتثقيفها، وتعليمها القراءة، والكتابة، والعلوم الدينيَّة، واللغوية إلى تخصيصه غرفة بحصن نزوى لتعليم المرأة تشرف عليها زهرة بنت شامس بن محمَّد السيفية. ونظرا للمكانة السامية التي أبداها الإمام الخليلي بمكانة المرأة؛ فقد أشادت المرأة العُمانيَّة العالمة بالإمام الخليلي، وكتبت نضيرة بنت العبد الريامية مجموعة من القصائد في مديح الإمام الخليلي.

كلمات مفتاحيَّة: الإمام الخليلي. الأسرة. المرأة. تعليم المرأة.

مقدِّمة:

تعنى الدراسة الحالية بمكانة المرأة لدى الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي ودور العائلة في تشكيل شخصيته، وكيف عملت على تنشئته وإعداده فردا له دور قيادي في مجتمعه، إذ إن محمَّد بن عبد الله هو ابن شيخ بني رواحة، وهو المُعَوَّلُ عليه في قيادة بني رواحة بعد والده. وفي هذا البحث سيكون التركيز على دور نساء العائلة في تربية محمَّد، وكيف ساندنه بعد أن أصبح إماما، وكيف أثر الاستقرار الأسري والنفسي في شخصيته في تعامله مع زوجتيه وابنته وحفيدته، وكيف تعامل مع النساء في المناطق التي حكمها. ويتناول البحث ثلاثة موضوعات رئيسة، وهي:

- نشأة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ودور عائلته في تنشئته.
- علاقة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بنساء عائلته.
- علاقة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بنساء دولته.

اعتمد الباحث على مجموعة من المصادر، إضافة إلى إجراء مقابلات مع ثلاث شخصيَّات عاصرت الإمام محمَّد أو عاصرت من عاصره وهذه الشخصيات هي:

الشيخ سعود بن علي بن عبد الله الخليلي، ابن أخ الإمام محمَّد بن عبد الله الذي تربى على يد الإمام، فعلَّمه القرآن وعلومه، وأشرف بنفسه على مواصلة تعليمه في حصن نزوى، وكان يتابع مدى تقدمه التعليمي كلَّ صباح. رافق سعود بن علي الإمام الخليلي في الكثير من أسفاره وجولاته بين المدن العُمانيَّة، فشهد معه عددا من لقاءات الإمام برعيته، وشهد اللحظات الأخيرة من حياة الإمام. وكتب الشيخ سعود كتابا حمل عنوان "كلمة: صفحات من تاريخ عُمان"[1] تناول فيه بعض الأحداث التي عاصرها الإمام الخليلي، والفترة الانتقالية التي شهدتها عُمان بعد وفاة الإمام الخليلي، حتَّى بدايات النهضة المباركة بقيادة السلطان قابوس.

الشيخ حمود بن عبد الله الراشدي، أحد طلاب الإمام الذين تلقوا العلم على يد الإمام في حصن نزوى، وكانت له مواقف وأحداث مع الإمام الخليلي. تمكنت الباحثة من خلال اللقاء به من معرفة بعض جوانب علاقة الإمام بنساء عائلته،

١) الخليلي، سعود بن علي: كلمة صفحات من تاريخ عمان، ط٢، دار أبعاد، بيروت: ٢٠١٥م.

ولاسيما زوجاته؛ نظرا لإقامة الشيخ حمود في حصن نزوى في أثناء مرحلة طفولته؛ حيث تلقَّى العلم في الحصن على يد مجموعة من المعلمين من بينهم الإمام نفسه.

حليمة بنت هلال بن سعيد بن حامد الراشدية، ابنة حفيدة الإمام محمَّد، وهي زمزم الراشدية، إذ استمعت حليمة للكثير من القصص من أمها، عن علاقة أمها بجدها الإمام الخليلي، وعلاقة الإمام بابنته عائشة والدة زمزم.

الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ودور عائلته في تنشئته:

ولد محمَّد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان الخليلي في وادي محرم سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م[١]، ذلك الوادي الذي عرف عنه غزارة مياهه التي لا تنقطع طوال العام، وتميزه بالمناظر الجميلة الخلابة. فوادي محرم منطقة زراعية جميلة، تتيح لساكنها لحظات رائعة من التأمل والسكينة، والاستمتاع بمنظر الوادي وجماله، وينشأ الفرد فيها على الهدوء، والسلام الداخلي.

عاش محمَّد بن عبد الله في أسرة مستقرة عاطفيًّا، أسرة تسعى إلى تربية أطفالها تربية تتماشى مع طبيعة العصر في تلك الفترة، تربية تقوم على تعليم أطفالها العادات العُمانيَّة الأصيلة، وتعليمهم العلوم الدينيَّة واللغوية، فعاش في كنف أسرة تتكون من أب وأم وأخ غير شقيق هو علي بن عبد الله وأختين شقيقتين. وأسرة الإمام محمَّد الصغيرة هذه تنتمي إلى عائلة عرف عنها اهتمامها بالعلم والاشتغال به، فهي عائلة علمية تمتد أصولها إلى فترة الإمامة الثانية، فجدهم الإمام الصلت بن مالك الخروصي الذي حكم عُمان خلال الفترة (٢٣٧هـ/ ٨٥١م - ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م)، ومن بعد الصلت تولى ابنه شاذان قيادة المعارضة التي حدثت إثر عزل والده من قبل موسى بن موسى بن علي الإزكوي الذي عيَّن راشد بن النضر عوضا عن الإمام الصلت الخروصي. ومن هذه العائلة أيضا ينحدر إمام آخر وهو الخليل بن شاذان بن الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك الخروصي الذي تولى الإمامة بين (٤٠٧هـ/١٠١٦م-٤٢٥هـ/١١٣١م)[٢].

---

١) السالمي، محمَّد بن عبد الله: نهضة الأعيان بحرية أهل عمان، دار الكتاب العربي، القاهرة: ١٩٨٥، ص٣٠٩.

٢) السالمي، عبد الله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، السيب: ٢٠٠٠، ص٢٥٣؛ البطاشي، سيف بن حمود: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان، ط١، ج١، مسقط: ١٩٩٤م، ص٣٢٢ وما بعدها.

ومن هذه العائلة - أيضا- جده الشيخ سعيد بن خلفان بن أحمد بن صالح الخليلي، الذي ولد في بوشر سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٥م، ومات عنه والده، وهو ما زال طفلا صغيرا؛ فرباه جده أحمد بن صالح الخليلي[١]. عاش سعيد بن خلفان في بداية شبابه في بوشر، المنطقة التي استقر فيها أجداده بعد انتقالهم من بهلا، ثمَّ انتقل إلى سمائل؛ ليقيم فيها باقي حياته. وتزوج سعيد بن خلفان من ابنة الشيخ سليمان بن ماجد الخروصي، ورزق منها ابنة واحدة وهي شمساء، وولدان هما محمَّد وعبد الله. وتزوج زوجة أخرى من بني خروص، وأنجبت له أحمد بن سعيد أصغر أولاده[٢].

ربَّى سعيد بن خلفان أولاده تربية تقوم على حب العلم والاجتهاد في طلبه، غير أنَّه لم يفرض عليهم أن يتخصصوا في علم معيَّن دون غيره، بل ترك لهم حرية التوجه الفكري. فكان محمَّد رفيق والده في العمل السياسي، وعمل معه في مهمة إعادة الإمامة، وتنصيب الإمام عزَّان بن قيس. وحين ألقي القبض على سعيد بن خلفان كان محمَّد رفيقه أيضا في سجن الجلالي، وماتا معا في هذا السجن في ذي القعدة ١٢٨٧هـ/ ١٦ فبراير ١٨٧١م، ومحمَّد ما زال شابا يافعا لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره[٣].

وكان عبد الله، والد الإمام محمَّد، شاعرا مرهف المشاعر، كتب ديوانا شعريًّا متنوع الأغراض[٤]. تلقى الإمام محمَّد علومه الأولى كالقراءة، والكتابة، ومبادئ الحساب على يد والده، وتعلم منه العادات العُمانيَّة الأصيلة، وظل ملازما له إلى أن انتقل عبد الله الخليلي إلى رحمة الله في جمادى الآخرة سنة ١٣٣٢هـ/

١) السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٣١٢؛ الراشدي، مبارك بن عبد الله: الشيخ العلاَّمة سعيد بن خلفان الخليلي وفكره، ط١، ٢٠٠١، ص٩-١٠؛ الهاشمي، مبارك بن سيف: سمائل ومكانتها الثقافية والاجتماعيَّة في التاريخ القديم والمعاصر، بحث مقدم لندوة سمائل عبر التاريخ، ط١، المنتدى الأدبي، مسقط: ٢٠٠٨، ص١٢٨.

٢) السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٣١٢. الراشدي، مبارك: الشيخ سعيد بن خلفان وفكره، ص٢٣.

٣) السالمي، عبد الله: تحفة الأعيان، ص٢٩٦. السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٣١٧؛ غباش، حسين عبيد: عمان الديمقراطية الإسلاميَّة تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث (١٥٠٠م- ١٩٧٠م)، ط١، دار الجديد، ١٩٩٧م، ص٢٣٢.

٤) فقد هذا الديوان، ويقال: إن الإمام محمَّد هو من مزَّقه. بقي منه مجموعة من القصائد يتداولها الناس حفظا، أوردها الخصيبي في كتابه شقائق النعمان، للمزيد حول شعر عبد الله بن سعيد الخليلي ينظر: الخصيبي، محمَّد بن راشد: شقائق النعمان على سموط الجمان، ط٣، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ١٩٩٤، ج٢، ص٢٤٣- ٢٥٢.

أغسطس١٩١٤م[١]، وابنه محمَّد يبلغ من العمر ٣٣عاما.

وأمَّا أحمد بن سعيد بن خلفان، أصغر أبناء الشيخ سعيد، فكانت اهتماماته فقهية؛ فألف عددا من المنظومات الفقهيَّة في السلوك، وله عدد من الأجوبة الفقهيَّة[٢]، يقول عنه الخصيبي: "كان بحرا زاخرا في العلم، عليه مدار الفتوى والقضاء في وادي سمائل"[٣]. وارتبط الإمام محمَّد الخليلي بعمه أحمد بن سعيد كثيرا؛ فتعلم على يديه العلوم الدينيَّة، وكان كثيرا ما يحاور عمه ويناقشه في عدد من المسائل الفقهيَّة، وخاصة تلك التي كانت محل خلاف بين العلماء. وكلل محمَّد محبته لعمه بأن تزوج من ابنته فاطمة. مات الشيخ أحمد بن سعيد في ١١ ذي الحجة ١٣٢٤هـ/ ٢٦ يناير ١٩٠٧م، وكان مصابا بالصرع، ففاجأته إحدى النوبات، وهو في فلج السمدي بسمائل فغرق في الفلج[٤]. ولم تكن شمساء بنت سعيد أقل عن إخوتها من حيث اهتمامها بالعلوم الفقهيَّة، أو مشاركتها في الميدان السياسي؛ فكانت مرجعا للفتيا من الرجال والنساء، يطلبون رأيها الفقهي في كثير من المسائل.

عاش الإمام محمَّد في كنف عائلة علمية سياسيَّة لها مكانتها الاجتماعيَّة. وأن يعيش إنسان في كنف مثل هذه العائلة لمدعاة أن يعتزَّ بنسبه، ويكون نسبه حافزا له لأن يقتدي بهم، وأن يصبح في مكانة علمية واجتماعيَّة وسياسيَّة لا تقلُّ عن باقي أفراد عائلته. لذا أصبح محمَّد بن عبد الله من الحريصين على طلب العلم. ومن أجل العلم سافر إلى شرقيَّة عُمان؛ ليتلقى العلم على يد كبير علماء عُمان في ذلك العصر، وهو الشيخ نور الدين السالمي. وهناك شمر الخليلي عن ساعد الجد، وكان الطالب المجد، إذ تروى الكثير من القصص التي تنم عن شغف الخليلي بالعلم والمثابرة في طلبه. وبعد وفاة والده الشيخ عبد الله الخليلي، الذي كان يتزعم بني رواحة، تقلد محمَّد مهام المشيخة خلفا له، وقاد بني رواحة بفكر مختلف عن فكر والده. وحرص قدر الإمكان على السلام بين القبائل وعدم الدخول في حروب

---

١) المرجع نفسه، ص٢٥٢.

٢) المرجع نفسه، ج٣، ص١٤٦- ١٤٧؛ السليمي، محمود بن مبارك. مكانة سمائل الفكرية والأدبية، بحث مقدم لندوة المنتدى الأدبي بعنوان سمائل عبر التاريخ، ط١، وزارة التراث والثقافة، مسقط: ٢٠٠٨م، ص٨١.

٣) الخصيبي: شقائق، ج٣، ص١٤٦.

٤) المرجع نفسه، ج٣، ص١٤٧.

لأسباب واهية لا تستدعي الحرب، وكان كثيرا ما يسعى للصلح بين القبائل ولَمِّ شملها[١].

علاقته بوالدته شيخة بنت ناصر بنت عبد الله السعدية:

اقترن والد الإمام الخليلي عبد الله بن سعيد بامرأة من عائلة ذات حسب ومكانة اجتماعيَّة، وعلى قدر من الثقافة والعلم، وهي شيخة بنت ناصر بن عبد الله السعدية التي نشأت في بيت جاه وعلم؛ فوالدها ناصر بن عبد الله السعدي من علية قومه، وكان فقهيا يرجع إليه الناس في الفتوى، وحذا حذوَه ابنُهُ خلفان بن ناصر[٢]. قال محمَّد بن عيسى الحارثي مادحا الإمام محمَّد وخاله خلفان بن ناصر[٣]:

وقد تلقانا الإمام العادل	وفضله على الرعايا شامل
أبو خليل الولي العادل	به أنارت للهدى معالم
والشيخ خلفان ترقى رتبا	خال الإمام الشهم تاج الأدبا

عملت أم الإمام الخليلي على تربيته في نشأته الأولى تربية دينية، وأكسبته عددا من المهارات والسلوكيات التي تجعله في مصافِّ الشباب المشهود لهم بالخلق، وحسن السلوك. إذ عُرِفَ عنه فيما بعد اهتمامه بمظهره، وحسن هندامه أمام الآخرين، وهذه السلوكيات التي تزرعها الأم في شخصيَّة الابن، وتعززها فيه، تصبح بعد ذلك جزءًا من شخصيته.

ومن الأخلاق الحميدة التي نجحت شيخة أم الإمام في غرسها في ولدها: الكرم، والإحساس بالآخرين، ومدُّ يد العون لهم، لاسيما في أوقات الشدة. إذ كانت أمه من النساء المشهود لهن بالكرم؛ ففي فترة الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م-١٩٤٥م) عانى الكثير من الناس من العوز والفقر لدرجة أن بعضهم كان لا يجد ما يأكله؛

---

١) السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٣٠٩.

٢) الراشدي، حمود بن عبد الله: السيرة الذاتية للإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، بحث مقدم لندوة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي ودوره الحضاري والعلمي في عمان، ص٣؛ مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠١٦م.

٣) الراشدي، حمود بن عبد الله: المرجع نفسه، ص٣.

فقررت أم الإمام أن يكون لها دور في مساعدة المحتاجين من أهل بلدها؛ فأمرت خدمها أن يعدُّوا الطعام يوميا لكل من يحتاج له، فكانت تطعم في اليوم الواحد أكثر من خمسين شخصا[١]. وقد أخذ الإمام الخليلي عن والدته هذا الخُلق الحميد، فَعُرِفَ أنَّه كريم محبٌّ للعطاء.

ومن الخصال الحميدة التي اكتسبها من والدته -أيضا- الصبر على الألم والمرض؛ إذ أصيب الإمام محمَّد بعدد من الأمراض؛ نظرا لحياة التقشف التي عاشها بعد أن عُين إماما، وساهمت مهام الإمامة الكثيرة في تعرُّضه لعدد من الوعكات الصحيَّة، وخلال هذه الوعكات تجلَّد وصبر؛ فهو لا يشتكي، ويداوي نفسه بنفسه. وقد يقول قائل: إن خصلة الصبر على الألم قد تكون صفة زرعها الإمام في نفسه، ولكن من المعلوم أن المرأة لها قدرة أكبر على تحمل ألم المرض والعمل على مداواة وتطبيب نفسها.

وحين بلغ محمَّد مبلغ الرجال، أدركته أمه، وهو يقف مع والده في مصاف الرجال، ويساعده في إدارة شؤون بني رواحة، وبعد وفاة زوجها عبد الله بن سعيد سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٢م)، أصبح ولدها محمَّد شيخ بني رواحة، وشهدت أهم حدث في حياته، وهو توليه منصب الإمامة، فكانت خير مشجع له، فخورةً به وبإنجازاته، وظل الإمام يزورها خلال فترة توليه للإمامة، وإن كانت زيارته معدودة بحكم التزامات المنصب، وبُعد عاصمة الإمامة نزوى عن سمائل، إذ ظلَّت شيخة تقطنها حتَّى بعد انتقال ولدها إلى نزوى[٢].

لم يتوقف دور أُمِّ الإمام شيخة عند تربية أولادها الثلاثة، بل اعتنت بأحفادها، ولاسيما حفيدة ولدها الإمام محمَّد، بحكم أنَّها الحفيدة الأقرب إليها؛ فحفيدتاها من ابنتيها كانتا في القابل، أمَّا حفيدتها عائشة فعادت للسكن بالقرب منها لزواجها من أحد شيوخ بني رواحة، وكثيرًا ما تلجأ إلى جدَّتها؛ لتساعدها ولتتلقَّى منها النصائح فيما يخص حياتها الزوجية؛ فهي بحاجة إلى من يقف بجانبها، ويمدُّها بالدعم المعنوي؛ لأنَّ أمها بعيدة عنها في نزوى، فكانت جدتها شيخة هي سندها،

١) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠١٦م.
٢) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ٢٠١٦/٢/١١م.

وموجِّهتها، ومرشدتها فيما يتعلَّق بأمور الحمل، والولادة، وتربية الأولاد[١].

علاقة الإمام الخليلي بأختيه:

أنجبت شيخة السعدية من عبد الله بن سعيد الخليلي ولدا واحدا وهو محمَّد، الذي أصبح إمام عُمان فيما بعد، وابنتين اثنتين، وهما: الأولى عزَّة، والثانية خديجة، تزوجهما الشيخ عيسى بن صالح الحارثي[٢]. تزوَّج عيسى بن صالح في البدء عزَّة، ورزق منها أربع بنات، وبعد فترة من الزمن انتقلت عزَّة إلى جوار ربها؛ فتزوَّج شقيقتها الصغرى خديجة؛ لتعينه على مهام الحياة، وتربي معه بنات أختها[٣]. قامت علاقة الإمام محمَّد بأختيه على المحبة والتراحم؛ فكان يزورهما كلَّما سنحت له الفرصة بذلك، وكان كثير التقدير للشيخ عيسى بن صالح[٤].

علاقة الإمام الخليلي بعمته شمساء الخليلية:

ولدت شمساء في بوشر حيث كان يقيم والدها قبل انتقاله إلى سمائل[٥]؛ فكانت أولى تباشير السعادة لأبويها فهي ابنتهما البكر. عاشت شمساء الخليلية في بيت علم ودين، وتربت لتكون فتاة ذات أخلاق رفيعة وعلم نافع. وحين بلغت مبلغ الشباب اختار لها والدها سعيد بن خلفان الإمام عزان بن قيس البوسعيدي؛ ليكون زوجا لها. ظلت شمساء مع الإمام عزان في عيشة هنية تنعم بالسعادة الزوجيَّة، وساندته في قيام دولته، ودعَّمته ماديًّا ومعنويًّا، إلَّا أن الأجل لم يمهل الإمام عزان فمات سنة (١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م). ظلت شمساء مخلصة ووفية لزوجها بعد وفاته؛ فلم تقترن بغيره بالرغم من أنَّها ما زالت شابة في مقتبل عمرها، ولم تنجب من الإمام عزان أولادا، وتقدَّم الكثيرون لخطبتها إلاَّ أنَّها ظلَّت مصرَّة على أن لا ترتبط بشخص آخر بعده، وكانت دائما تردِّد: "لا رجل بعد عزان". وعاشت بعد وفاة

---

١) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ٢٠١٦/٢/١١م.

٢) تولى الشيخ عيسى بن صالح زعامة الحرث بعد وفاة والده صالح بن علي الحارثي. للشيخ عيسى عدد من المؤلفات، منها: الرد العزيز على أحكام الدريز، رسالة في منع الإسقاط بالحوائج، وله مجلد ضخم يضم أجوبة فقهية. مات الشيخ عيسى ١٣٦٥هـ ودفن بالقابل. السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٧٥- ٧٦.

٣) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ٢٠١٦/٢/١١م.

٤) السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٣٣٠.

٥) الشيباني، سلطان بن مبارك: معجم النساء العمانيات، ط١، مكتبة الجيل الواعد، مسقط، ٢٠٠٤م، القسم الأول، ص٩١.

زوجها الإمام عزان ستًّا وستِّين سنة، عاشتها في الإفتاء للنساء فيما يخصُّهنَّ، ولم تبخل أيضا على الرجال بعلمها؛ فكثيرا ما يقصدونها للفتوى أو للاستفسار عن موضوع فقهي معيَّن؛ فتجيب عن الأسئلة التي تردها[١].

ولم يقتصر دورها في مساندة زوجها الإمام عزان في دولته وحسب، بل ساندت ابن أخيها الإمام محمَّد الذي دعَّمته بالمال فور تولِّيه الإمامة؛ فحين قرر الإمام محمَّد أن يبيع مزارعه في سمائل، ويُدخل ريعها في خزينة الدولة اشترت منه هذه المزارع؛ لتحقِّق بذلك هدفين: الأوَّل: دعم دولة الإمام بالمال، والهدف الثاني: أن تحافظ على مزارع ابن أخيها، وتظلَّ في حيازة العائلة. انتقلت شمساء إلى رحمة الله سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٣م بعلاية سمائل[٢].

علاقة الإمام الخليلي بزوجاته:

اختلف الرواة الذين عاصروا الإمام محمَّد الخليلي في عدد زوجاته، فالقاضي حمود بن عبد الله الراشدي والشيخ جابر بن علي المسكري يذكران أنَّ للإمام ثلاث زوجات. الزوجة الأولى هي عائشة بنت سعيد بن عمير الفرعية، تزوجها قبل أن يتولى منصب الإمامة، وأنجب منها ابنة واحدة، وماتت الأم وابنتها في حياة الإمام. أمَّا الزوجة الثانية فهي ابنة عمِّه فاطمة بنت أحمد بن سعيد الخليلية[٣]، وأنجب منها ابنة واحدة، وهي عائشة[٤]. أمَّا الزوجة الثالثة فهي جوخة بنت سيف بن سليمان الرواحية، ولم تنجب للإمام أطفالا[٥]. وفي الجانب الآخر، أكَّد الشيخ سعود بن علي الخليلي، ابن أخي الإمام، وحليمة الراشدية، ابنة زمزم حفيدة الإمام محمَّد، أن الإمام تزوَّج زوجتين هما: فاطمة الخليلية، وجوخة

١) الشيباني: المرجع نفسه، ص٩٢.

٢) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠١٦م.

٣) يذكر سعيد بن حمد الحارثي أن زوجة الإمام وابنة عمه تسمى ثريا وليست فاطمة، وتأكد لنا من خلال مقابلة الشيخ سعود بن علي الخليلي وحليمة الراشدية أن اسمها فاطمة وليس ثريا. الحارثي، سعيد بن حمد بن سليمان: اللؤلؤ الرطب في إبراز مستودعات القلب، دون بيانات للكتاب، ص١٦١.

٤) يذكر القاضي حمود الراشدي أن فاطمة أنجبت ابنتين، إلاَّ أنَّه مع البحث في الموضوع تأكد للباحثة أن فاطمة أنجبت ابنة واحدة فقط وهي عائشة. ينظر: الراشدي، حمود: السيرة الذاتية للإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ص٥.

٥) المرجع نفسه، ص٥.

الرواحية[1]. وعند الاطلاع على وصيَّة الإمام محمَّد الخليلي تبيَّن أن الإمام أوصى لزوجاته سواء من كانت على قيد الحياة أو ماتت في حياته، فزوجته فاطمة ماتت في حياته، وأوصى لها بكفَّارتين، وفي هذه الوصيَّة لا نجد أيَّ ذكر لعائشة بنت سعيد الفرعية؛ ممَّا يؤكد أنَّ الإمام لم تكن له زوجة بهذا الاسم.

عمل الإمام على العدالة بين زوجتيه؛ فخصَّص لكل واحدة منهما مكانًا خاصًّا بها للإقامة في حصن نزوى. فابنة عمِّه فاطمة، تقيم في البيت الغربي في حصن نزوى. وأمَّا جوخة الرواحية، فتقيم في جناح خاص بها في ساحة الحصن[2]. وجعل الإمام لكلٍّ منهما يوما، ووفَّر المستلزمات المعيشيَّة، وكلَّ ما تحتاجه أيٌّ منهما على قدر المساواة دون تمييز. وكان الإمام زوجا طيِّبَ المعاشرة، لم يعرف عنه أنَّه رفع صوته على زوجتيه، أو أنَّه أهان أيًّا منهما أو ضربها[3]. وقد شغلت مهامُّ الإمامة الإمام كثيرا عن الحياة الزوجيَّة؛ ويتسنَّى لنا التحقُّق من ذلك من خلال دراسة الجدول الزمنيِّ لأعمال الإمام خلال اليوم الواحد. فالدارس لهذا الجدول يجد أنَّ الإمام لم تكن له فرص كثيرة للالتقاء بزوجتيه؛ نتيجة اشتغاله طوال اليوم، إمَّا بمهامِّ الإمامة أو التعليم أو العبادة؛ فهو يبدأ يومه بعد صلاة الفجر التي يصلِّيها إماما بالناس، ثمَّ يقرأ القرآن، وبعدها يتناول وجبة الإفطار مع الحاضرين معه، وهي عبارة عن تمر وقهوة، ثمَّ يدخل إلى بيته بحصن نزوى؛ حتَّى يرتاح لفترة قصيرة، ثمَّ يعود لمجلسه ليباشر عمله في تصريف أمور الدولة، ويظلُّ في مجلسه هذا إلى وقت صلاة الظهر. وفي فصل الصيف يدخل الإمام إلى البيت قبل صلاة الظهر بنصف ساعة ليرتاح قليلا، ثمَّ يخرج ليصلي بالناس جماعة، ثمَّ يتناول وجبة الغداء مع الموجودين بالحصن. وبعد الغداء يتابع الإمام تصريف أمور دولته إلى صلاة العصر، وبعد أن يصلِّي بالناس يتناول معهم التمر والقهوة، وعقب صلاة المغرب يجلس مع طلبة العلم لمناقشتهم في القضايا الفقهيَّة إلى وقت صلاة العشاء، ثمَّ يعود إلى بيته بالحصن؛ ليتناول وجبة العشاء مع أسرته[4].

---

١) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ٢٠١٦/٢/١١م؛ مقابلة مع حليمة بنت هلال الراشدية بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ٢٠١٥م.

٢) الراشدي، حمود: السيرة الذاتية للإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، ص٥.

٣) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠١٦م.

٤) السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٣٢٥- ٣٢٦.

ومن خلال دراسة هذا الجدول اليومي يتبين أن الإمام قد قسم وقته بين تصريف أمور دولته ومتابعة شؤون الرعية، والقيام بمهمة التعليم ومتابعة طلبة العلم في المدرسة التي أنشأها في حصن نزوى، وبين الإفتاء للناس بحكم أنَّه كان عالما وفقيها. يعمل الإمام بهذا الجدول في الأيام التي يقضيها في حصن نزوى، وأمَّا في أثناء جولاته بين الولايات فالأمر مختلف. فيوم الإمام كان مزدحما بالأعمال الكثيرة؛ لذا فهو قليل الجلوس مع أسرته، حتَّى في الفترة المسائية التي كان من الممكن أن تخصَّص للأسرة كان الإمام يقضي جزءا منها في الصلاة، والعبادة، وقيام الليل.

أدركت الزوجتان حجم الأعباء الملقاة على كاهل زوجهما، فعملتا على مساعدته في بعض مهامِّه، وعلى وجه الخصوص مهمَّة متابعة شؤون الطلبة الصغار في العمر، من حيث تغذيتهم ومتابعة ما قد يحتاجونه من متطلَّبات الحياة، وكانتا حريصتين على أن يتعاملن مع الطلبة كأبنائهنَّ[١].

عاشت فاطمة الخليلية وجوخة الرواحية مع زوجهما عيشة هنية وفي رغد من العيش قبل تولِّيه الإمامة، ولكن بعد أن تولَّى منصب الإمامة سلك في حياته مسلك الزهد والتقشُّف في العيش، اقتداءً بالخلفاء الراشدين عامَّة، وبسيِّدنا عمر بن الخطَّاب على وجه الخصوص. لم يُلزم الإمام نفسه بهذا المسلك من المعيشة فحسب، بل فرضه على أهل بيته. ومن الروايات التي تروى عنه في أثناء الحرب العالمية الثانية، حين تعذر الحصول على الأرز الذي كان يجلب من باكستان، وصار سلعة نادرة غالية الثمن، وأصبح التمر والأسماك المجفَّفة هما الوجبة الرئيسة لأكثر الناس؛ فتعايش الإمام مع هذا الوضع الجديد، فأصبح لا يأكل إلاَّ ما يأكله شعبه، وهو التمر والسمك المجفَّف. ولاحظت زوجته فاطمة أنَّ الإمام فقد الكثير من وزنه، وتأثرت بذلك صحَّته؛ فادَّخرت من مالها الخاصِّ قيمة كيس من الأرز، حتَّى يأكل منه الإمام وأهل بيتها. وحين توفَّر لديها قيمة الأرز اشترته، ومن فرط سعادتها بذلك قرَّرت طبخه بنفسها لوجبة الغداء، وتوقَّعت أنَّ الإمام سيفرح كثيرا لفعلها هذا، إلاَّ أنَّ الإمام حين رأى الأرز سألها عن مصدره؛ فأجابته بأنَّها اشترته من مالها الخاصِّ، فلم يستحسن هذا التصرُّف، إلاَّ أنَّه لم يغضب؛ لأنَّه يدرك أنَّ

١) مقابلة مع القاضي حمود الراشدي بتاريخ ٥/ ٢/ ٢٠١٦م.

الدافع وراءه حبُّ زوجته له، فأكل من الأرز، ثمَّ شرح لها وجهة نظره في أنَّه لا يحبُّ أن يُخصَّ بطعام معيَّن، بينما باقي شعبه لا يجده، وأوضح لها أنَّه يحبُّ أن يتساوى معهم، ويحيا مثل حياتهم، ويأكل ما يأكلون[1].

علاقة الإمام الخليلي بابنته عائشة:

لم يرزق الإمام الخليلي من الذرِّيَّة إلاَّ ابنة واحدة، من ابنة عمه فاطمة بنت أحمد بن سعيد الخليلية. أطلق الإمام على ابنته اسم عائشة، وأسبغ عليها الكثير من الحبِّ والحنان، وربَّاها تربية قائمة على مبدأ تعليمها شؤون دينها وحياتها، وألَّا يقسوا عليها، بل يعطف عليها ويرعاها. وحين أصبحت عائشة شابَّة صغيرة، تقدَّم لخطبتها أحد أعيان سمائل، وهو أحمد بن حامد الراشدي، وافق الإمام على هذا الزواج، مع أنَّه يعني انتقال ابنته بعيدًا عنه؛ فالإمام يقطن نزوى، بينما فلذة كبده الوحيدة ستسافر إلى عشِّ الزوجية في سمائل، وسيصبح من الصعوبة بمكان أن يراها دائما. لم يحاول الإمام أن يفرض على زوج ابنته نمط معيشة معيَّنا أو أن يتدخَّل في شؤون حياتها الزوجيَّة.

عاشت عائشة مع زوجها أحمد في سمائل، وأنجبت منه ولدا وبنتا، وهما: يوسف وزمزم، إلاَّ أن الأجل لم يمهل يوسف؛ فمات وهو لا يتجاوز العاشرة من عمره، وأمَّا زمزم فبقيت تعيش في كنف والديها إلى أن انفصلا. لم تكن الحياة الزوجية بين عائشة وزوجها مستقرَّة، بل كانت دائمة الاضطراب؛ لأنَّ زوجها متزوِّج بأخرى، ممَّا يعني الكثير من المشكلات بين الأطراف الثلاثة. هذا عدا أنَّ زوجها يتعامل معها بغلظة لفظيَّة في الكثير من المواقف، وكانت هي لا تتحمَّل منه مثل هذه التصرُّفات؛ لأنَّها لم تألف هذا النوع من التعامل؛ لذا تركت بيت الزوجيَّة، وعادت إلى والدها في نزوى[2].

ومع ذلك لم يحاول الإمام أن يفرض سلطته على زوج ابنته أحمد بن حامد الراشدي، أو أن يطلب منه مراضاتها، أو أن تعيش طريقة الحياة نفسها التي كانت تعيشها قبل الزواج، بل ترك الأمر بين الزوجين؛ ليحلاَّ مشاكلهما الزوجيَّة. حاول

---

١) الحارثي، سعيد: اللؤلؤ الرطب، ص١٦١- ١٦٢.

٢) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠١٦م.

أحمد الراشدي مراضاة زوجته عائشة؛ فاتَّفق معها على أن يبني لها بيتا خاصًّا بها، فبنى لها بيتا سُمِّيَ بـ"بيت البستان"، فوافقت عائشة على العودة مع زوجها. وبعد فترة عادت المشكلات لتجد طريقها بين الزوجين، فتركت "بيت البستان" وعادت إلى أبيها مجدَّدًا. سافر أحمد الراشدي إلى نزوى لمراضاتها وإقناعها بالعودة معه إلى سمائل، ولكنَّها رفضت طلبه هذه المرَّة؛ بحجَّة أنَّها مريضة، وغير قادرة على القيام بمهامِّها الزوجيَّة، حتَّى في هذه المرَّة لم يحاول الإمام التَّدخُّل بين الزوجين، بل ترك لابنته حرِّيَّة تحديد مصيرها مع زوجها، وتحديد نوعيَّة الحياة التي تريدها معه[١].

لم يُقَدَّر لعائشة أن تعيش طويلا، فقد انتقلت إلى رحمة الله، وهي لم تزل شابَّة. حزن الإمام محمَّد كثيرا على فقد ابنته الوحيدة، التي فارقت الدنيا، وهي في ريعان شبابها، إلَّا أنَّه تجلَّد وصبر، ولم يُظهر حزنه عليها. فبعد أن دفنت عائشة أعطى لمن دفنها وحفر قبرها خمسة قروش، وأعلن للجميع أن يعودوا إلى مهامِّهم اليوميَّة، وأنَّه لا يوجد عزاء، ومنع النساء من القدوم للحصن من أجل تقديم العزاء لنسائه[٢]. ويتضح من هذا الموقف مدى حزن الإمام، وأنَّه من نوعيَّة الأشخاص الذين يشعرون بمصيبة الفقد، ولكنَّه في الوقت نفسه ممَّن لا يحبُّون إظهار عواطفهم أمام الآخرين؛ لذا شغل الإمام تفكيره بمهامِّه الكثيرة إماما ومعلِّما.

علاقة الإمام الخليلي بحفيدته زمزم الراشدية:

اهتمَّ الإمام بالحفيدة الوحيدة التي منَّ الله بها عليه؛ لأنَّها كانت تضفي على حياته بهجة وجمالا بروحها الطفوليَّة، وهي الذكرى الباقية له من ابنته عائشة التي ماتت، وابنتها لم تزل طفلة لم تتجاوز السابعة من العمر. كان الإمام يطلب من والد زمزم أن يسمح لها بزيارته والمكوث معه في نزوى بين الفينة والأخرى. وخلال فترة وجود زمزم في حضرة الإمام وضيافته، كان الإمام يلاعبها، ويدخل الغبطة والسرور إلى قلبها الصغير عن طريق الهدايا والحلويات التي يسعد بها

١) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ٢٠١٦/٢/١١م، مقابلة مع حليمة الراشدية بتاريخ ٢٠١٥/١٢/٢٤م.

٢) مقابلة مع القاضي حمود الراشدي بتاريخ ٢/٥/ ٢٠١٦م.

الأطفال من عمرها، وفي أثناء تناوله الغداء كان يناديها لتأكل معه، ويستأنس بقربها، ويتذكَّر من خلالها ابنته الوحيدة عائشة. ظلَّ الإمام متعلِّقا بحفيدته الوحيدة، حريصا على أن يغمرها بعطفه وحنانه حتَّى انتقل إلى رحمة الله، وكانت زمزم قد بلغت الخامسة عشرة من العمر؛ فحزنت لفراق جدِّها الإمام الذي كان يغمرها بالعطف والحنان عوضا عن أمِّها المتوفَّاة؛ فترجمت حزنها إلى نوع من البِّر إليه؛ فكانت تزور قبره في نزوى كلَّ جمعة، وتقرأ القرآن على روحه إلى أن توفَّاها الله عام ٢٠٠٢م[١].

عدالة الإمام الخليلي مع نساء أسرته في وصيَّته:

كان الصبر والتجلُّد أهمَّ صفات الإمام، فلم يكن من الأشخاص الذين يُظهرون الضعف؛ فحين أصيب بالملاريا رفض العلاج، وظلَّ يعالج نفسه عن طريق الأدوية التي كان يصنعها بنفسه. وعانى فترة من الزمن من التهاب العيون؛ ممَّا أثر كثيرا في بصره[٢]. وفي عام (١٣٧٠هـ/١٩٥٠م) تدهورت حالته الصحيَّة؛ ممَّا أثَّر في قدرته على ممارسة مهامِّ الإمامة، وظلَّ صابرا متجلِّدا، يعالج نفسه بنفسه، وتماثل للشفاء في النصف الأخير من السنة نفسها. وفي الأيَّام الأخيرة من شهر إبريل من سنة ١٩٥٤م تدهورت صحَّته مجدَّدًا؛ فظلَّ طريح الفراش حتَّى وافته المنيَّة في ٧ ربيع الآخر ١٣٧٣هـ/ ٢ مايو ١٩٥٤م[٣].

أمر الإمام الخليلي - وهو على فراش الموت - أن يحضر كاتبه ليكتب عنه وصيَّته، التي تضمَّنت الأمور الماليَّة فيما يتعلَّق بمراسم دفنه، وما يرجوه أن يدفع عنه من ماله من كفَّارات. وفي هذه الوصيَّة لم ينس الإمام الخليلي نساء عائلته: زوجاته، وابنته، واللائي لا يرثنه من نساء العائلة، وخادمة البيت؛ فأوصى لكلِّ واحدة منهنَّ مبلغا من المال. فكانت وصيَّته كالآتي: أوصى عن زوجته فاطمة، وابنته عائشة كفَّارات تدفع عنهما. أمَّا زوجته جوخة الرواحية، فأوصى لها مبلغا من المال كان لها، وقدره ٢٠٠ قرش فضَّة، وأن تأخذ معها بعد وفاته كلَّ ما اشترته

---

١) مقابلة مع حليمة الراشدية بتاريخ ٢٤ / ١٢/ ٢٠١٥م.

٢) الحارثي، محمَّد بن عبد الله: موسوعة عمان الوثائق السريَّة، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، ٢٠٠٧م، ج٣، الوثيقة رقم: ٥٥١، ص٤٩.

٣) المرجع نفسه، الوثيقة رقم ٥٥١، ص٤٩. القول المشهور أنَّه توفي في ٢٩ شعبان. (المحرر).

لمنزل الزوجيَّة من أوانٍ ومعدَّات طبخ. أمَّا خادمته التي خدمت أسرته بإخلاص وتفان رخيوة بنت صروخ فأوصى لها بعشرة قروش فضَّة، وأوصى لنساء عائلته ممَّن لا يرثنه لكلٍّ واحدة منهنَّ مبلغا من المال.

وهذا نصُّ الوصيَّة: "(...) وأوصى بعشرين قرشا فضَّة لأقاربه الذين لا يرثون شيئا من ماله، وأوصى بكفَّارتين للصلاة، كلُّ كفَّارة منها إطعام ستِّين مسكينا، والنظر في الإطعام لنافذ الوصيَّة، حوطة عمَّا أوصت به أهله بنت أحمد، وأوصى بكفَّارتين للصلاة، كلُّ كفَّارة إطعام ستِّين مسكينا، حوطة عمَّا أوصت به ابنته عائشة، (...) وأوصى أنَّ أهله بنت سيف بن سليمان إن ادَّعت شيئا من الأواني فهي مصدَّقة في ذلك، وأوصى لها بـ ٢٠٠ قرش فضَّة عن ضمان عليه لها، وأوصى للخادمة رخيوة بن صروخ بـ ١٠ قروش فضَّة"[١]. ومن هنا يتَّضح لنا عمق المشاعر النبيلة التي يحملها الإمام الخليلي لنساء عائلته، ومدى محبَّته لزوجته فاطمة؛ فهو لم ينسها في وصيَّته، على الرغم من وفاتها قبله، ولم ينس الإمام خادمته ونساء العائلة ممَّن لا يرثنه؛ وهذا يدلُّ على تقدير الإمام الخليلي للمرأة، وإدراك دورها في حياته، وتقديره لمساعدتها ووقوفها إلى جانبه.

علاقة الإمام محمَّد بن عبد الله بالنساء في دولته:

راعى الإمام الخليلي حقَّ المرأة في دولته، وسعى لحفظ حقوقها، فكان الإمام يسمح للمرأة بمقابلته والتحاور معه. وفي أثناء زيارته للمدن العُمانيَّة الواقعة تحت حكمه، كان يحرص على مقابلة نساء المدينة، ويتباحث معهنَّ ما يتعلَّق بأمور معيشتهنَّ، ويستطلع منهنَّ أحوال المنطقة. ومن الأمثلة على ذلك، حين مرَّ الإمام بسناو في إحدى جولاته، طلبت إحدى النساء "الصوَّافيات" مقابلته؛ لتخبره أنَّها تريد أن تتشفع في أرض، فوافق الإمام على طلبها، وكتب لها ورقة بذلك[٢]. وكانت نساء بديَّة من أحرص النساء على مقابلة الإمام والترحيب به؛ فحين ينزل في بديَّة سعى عدد كبير منهنَّ إلى مقابلته. وفي إحدى لقاءات الإمام بنساء هذه المدينة، عرضت عليه إحدى النساء أن تدفع كلَّ ما تملكه من ذهب لخزينة الدولة؛ متعلِّلة

١) الخليلي، محمَّد: الإمام محمَّد بن عبد الله الخليليُّ ومنهجه الفقهيُّ، ص٢١٠.
٢) مقابلة مع القاضي حمود الراشدي بتاريخ ٥/ ٢/ ٢٠١٦م.

بأنَّها لا تجد ما تزكّي به ذلك الذهب[١]. واعتادت عدد من نساء سمائل على السلام على الإمام ومناقشته في عدد من المسائل الفقهيَّة. ومن بين النساء الأكثر حرصا على مقابلة الإمام كلَّما زار سمائل امرأتان: إحداهما هاشميَّة، والأخرى نبهانية، عرف عنهما أنَّها ذات مال، وقامتا ببناء مسجد خصَّصنه للتعبُّد، وكانتا كلَّما التقتا بالإمام عرضن عليه عددا من المسائل الفقهيَّة، وتباحثن معه بشأنها[٢].

اهتمَّ الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بالعلم ونشره؛ قدوته في ذلك أستاذه الإمام نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، الذي أنشأ مدرسة تخرج فيها الكثير من العلماء والفقهاء منهم الإمام الخليلي نفسه، إضافة إلى الإمام سالم بن راشد الخروصي؛ لذلك حمَّل الإمام محمَّد نفسه مسؤوليَّة مواصلة مسيرة أستاذه التعليميَّة؛ فأنشأ مدرسة في حصن نزوى، مقرِّ حكمه، كانت عامرة بطلاَّب العلم، ولم يقف الإمام محمَّد عند هذا الحدِّ، بل خصَّص بحصن نزوى غرفة لتعليم النساء العلوم الدينيَّة، وأطلق على هذه الغرفة اسم "غرفة فاطمة" وجعل عليها معلِّمة تعلِّم النساء، وهي زهرة بنت شامس بن محمَّد بن خميس السيفية[٣]. وكان الإمام يفتي للنساء ويردُّ على أسئلتهنَّ الفقهيَّة، وكانت تصله رسائل من الناس تتعلَّق بطلب فتوى فيما يختصُّ بأمور النساء، وكان يحرص على الإجابة عليها[٤]. ومن غير المستبعد أن يرجع الإمام إلى نسائه، ويستشيرهنَّ في بعض المسائل الفقهيَّة التي تخصُّ بنات جنسهنَّ.

تابع الإمام شؤون النساء في المناطق التي يحكمها، فكان يكتب العهود لولاته وقضاته، والدارس لهذه العهود كثيرا ما يجد فيها جزئيَّة خاصَّة بالنساء ومتابعة أمورهنَّ، ولاسيما المرأة التي لا تجد من يعيلها. ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه الإمام في عهده لمحمَّد بن عبد الله السالمي حين عينه واليا على ديار المعاول وبلدة نخل إذ كتب له في العهد: "(...) وتطليق من أبى واستكبر الإنفاق على زوجته إن طلبت هي الطلاق، وكذا إن غاب زوجها، بحيث لا تناله الحجَّة، ولم يترك

---

١) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ٢/١١/ ٢٠١٦م.

٢) الحارثي، سعيد بن حمد: زهر الربيع في السعي لإرضاء الجميع، بدون بيانات للكتاب، ص٦٣.

٣) السيفي: النمير، ج٢، ص١٦٥.

٤) العبري، عبد الله بن مبارك: تحقيق الفتح الجليل من أجوبة أبي خليل، بحث مقدَّم لمعهد القضاء الشرعي، ١٩٩٦م، ص٤٦-٤٧.

لها نفقة ولا مالا تنفق منه، وأرادت الطلاق، وأن يزوِّج من ليس لها وليٌّ بالمصر من النساء، ممَّن رضيته زوجا، وكان كفؤًا"[١]. وورد في العهد الذي كتبه الإمام محمَّد بن عبد الله لسعود بن حميد بن خليفين الذي عيَّنه قاضيا على المضيبي وسناو: "(...) وتزويج من لا وليَّ لها في المصر، وتطليق من عجز زوجها عن نفقتها، كلُّ ذلك على وفق ما يقتضيه الحكم ويجيزه العلماء"[٢].

ويتَّضح من خلال هذين العهدين كيف أن شؤون المرأة كانت من أولى اهتمامات الإمام محمَّد، ومن أولى المهامِّ التي يطلب من واليه أن يتابعها. وتشمل مهامُّ الوالي المتعلِّقة بشؤون المرأة:

تطليق كلِّ امرأة رفعت موضوعها إلى القضاء بخصوص عدم نفقة زوجها عليها، وطلبت هي الطلاق.

يكون الوالي وكيلا للمرأة التي ليس لها ولي أمر.

يحقُّ للوالي أن يطلِّق المرأة من زوجها الغائب عنها والذي لم يَرِد أيُّ خبر عنه وعن بقائه على قيد الحياة؛ فيقوم الوالي بتطليق الزوجة في حال طلبت هي منه ذلك، ويبيع ماله؛ ليتمَّ الإنفاق عليها من ذلك المال. وهنا يقع على عاتق الوالي أن يكون كفيلا لها في عقد الزواج إن أرادت الزواج مرَّة أخرى.

ولهذه المهامِّ التي يقوم بها الوالي تجاه المرأة أبعاد اجتماعيَّة أخرى إذ يكون الوالي على اطِّلاع بالنساء اللاتي يحتجن إلى متابعة من قبله؛ لانعدام من يقوم برعايتهنَّ أو الإنفاق عليهنَّ.

وامتازت شخصيَّة الإمام بالسماحة والرفق في تعامله مع النساء، فلم يكن شديد المراس أو ذا غلظة في التعامل معهنَّ، بل راعى نفسيَّة المرأة، فلا يعمد إلى إحراجها أو القسوة في التعامل معها. ومن المواقف التي تذكر للإمام في هذا الشأن حين تمدُّ النساء أيديهنَّ لمصافحة الإمام لم يكن يغضب منهنَّ أو يُسمعهنَّ ما لا يسرُّهنَّ، بل يطلب منهنَّ برفق أن يغطِّين أيديهنَّ بجزء من غطاء رأسهنَّ - الذي يعرف محلِّيا

١) السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٢٤٧. العبري: تحقيق الفتح الجليل، ص٩٦-٩٧.
٢) السالمي، محمَّد: نهضة الأعيان، ص٢٤٨. العبري: تحقيق الفتح الجليل، ص٩٦.

باسم "الليسو" - ومن ثَمَّ يصافحهنَّ بوجه مبتسم. وإذا ما خاطبته إحدى النساء وقد ظهر شيء من شعرها، فإنَّه يشير إليه بعصاه لتنبيهها إلى تغطية شعرها دون أن يتكلَّم إطلاقا[١].

وكان الإمام محمَّد بن عبد الله أيضا مقدِّرا لعالمات عصره، أو ممَّن لهنَّ دور ثقافيٌّ أو اجتماعيٌّ. ومن هؤلاء النساء نضيرة بنت العبد بن سرور الريامية، المولودة بنزوى، وحين بلغت مرحلة الصبا والشباب تزوَّجت وانتقلت لتعيش مع زوجها في قرية معمد بولاية منح. وكان لنضيرة دور ثقافيٌّ في مجتمعها الجديد بمعمد؛ إذ بنت مصلًّى للنساء، وعزَّزته بأماكن للوضوء، كما بنت "مجازة" بالقرب من أماكن الوضوء؛ حتَّى تغتسل فيها المرأة قبل ولوجها إلى المصلى لتدخل وهي طاهرة. ولنضيرة دور عمراني آخر، إذ أسهمت في إصلاح مساجد منطقتها، وأنفقت عليها من مالها الخاصِّ. وفي الجانب التثقيفيِّ، عقدت حلقات دراسيَّة للنساء لتعليمهنَّ شؤون دينهنَّ ومناقشة أمور الحياة والثقافة معهنَّ[٢].

وتقديرًا لدورها ومكانتها العلميَّة والمجتمعيَّة، حرص الإمام سالم بن راشد الخروصي على زيارة نضيرة الريامية والالتقاء بها في بيتها عند زيارته لمنح. واستقبلت نضيرة الريامية الإمام سالم بحفاوة وترحاب، وسلَّمته قصيدة شعريَّة من إعدادها تهنِّئه من خلالها بالإمامة، وتشيد بإنجازاته. وحين بلغ نضيرة خبر مقتل الإمام سالم بن راشد كتبت قصيدة في رثائه، إذ لقي الإمام حتفه بعد خروجه من منح على يد أحد البدو الذي أطلق عليه رصاصة وهو في معسكره مع مرافقيه في خضراء بني دفاع. وحين تولَّى الإمام الخليلي شؤون الإمامة خلفا للإمام سالم الخروصي كتبت نضيرة قصائد في مدحه والإشادة بدوره السياسيِّ والثقافيِّ[٣].

انتقلت نضيرة إلى جوار ربِّها بعد أن بلغت مرحلة متقدِّمة من العمر؛ فحزن أهل قرية معمد على فراق هذه المرأة المفعمة بالنشاط والحيويَّة، تلك المرأة التي جاءت بلادهم، وهي عروس شابَّة صغيرة؛ فنجحت في فرض شخصيَّتها وحضورها من

---

١) حليمة الراشدية، مقابلة شخصيَّة في ولاية سمائل بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ٢٠١٥م.
٢) السيفي، محمَّد بن عبد الله: نساء نزوانيَّات، مكتبة الأنفال، مسقط، ١٤٢٤-١٤٢٥هـ.
٣) المرجع نفسه، ص٥٨-٦٠.

خلال عملها الإنسانيِّ. كتب أهالي معمد رسالة إلى الإمام محمَّد لإعلامه بوفاتها، معبرِّين فيها عن حزنهم العميق على فراق نضيرة ذات اليد البيضاء، فردَّ الإمام على رسالتهم برسالة مواساة وتعزية كتب فيها: "من إمام المسلمين (...) وكتابكم وصلني بموت نضيرة، ولقد قدمت إلى ربٍّ كريم رحيم، نسأل الله أن يتجاوز عن سيِّئاتها، ويتغمَّدها بواسع رحمته، ويسكنها فسيح جنَّاته، ويجعلها من الأبرار في دار القرار"[١].

ومن النساء اللاتي عملن على خدمة مجتمعهنَّ خديجة بنت زهران بن زاهر بن عمر الصباحية التي عاشت في فترة حكم الإمام محمَّد الخليلي، وتعلَّمت القرآن والفقه. شمَّرت خديجة الصباحيَّة عن ساعد الجدِّ، فعلَّمت نساء نزوى العلوم الدينيَّة، وكانت تفتي النساء، وتستشير فيما أشكل عليها الفقيه سالم بن سيف البوسعيدي[٢].

ومن النساء - كذلك - ممَّن كان لهنَّ دور ثقافيٌّ واجتماعيٌّ في عهد الإمام محمَّد الخليلي، منيرة بنت سليمان بن عامر البطرانيَّة (ت: ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م). كانت منيرة تستفتي الإمام الخليلي وتناقشه في المسائل الفقهيَّة، وتزور حصن نزوى أيَّام الأعياد للسلام على الإمام وعائلته، وتهنئتهم بالعيد، وتهدي الإمام وعائلته أصنافا شتَّى من أطباق اللحم[٣]. واسهمت منيرة إسهامات عدَّة في تطوير نزوى، وخدمة مجتمعها ثقافيًّا وصحيًّا، وهما الركيزتان الأساسيَّتان لكلِّ مجتمع. ففي مجال التعليم ونشره ومحو الأمِّيَّة عن نساء نزوى وأطفالها، عَيّنَتْ معلِّمة، وبراتب تدفعه من مالها الخاصِّ، لتدريس النساء والأطفال القرآن والعلوم الدينيَّة. وكانت تشتري الكتب لتوزيعها على الطلاَّب مجَّانا. مع حرصها في نهاية كلِّ عام على إدخال الفرح والسرور على المتعلِّمين والمتعلِّمات من خلال تكريمهم بمبلغ ماليٍّ؛ تشجيعا لهم على مواصلة حفظ كتاب الله. وفي الجانب الصحِّيِّ استأجرت رجلا مختصًّا في الطبِّ الشعبيِّ، ليداوي أبناء مجتمعها من الأمراض المنتشرة، خصوصا أمراض العيون.

---

١) السيفي: نساء نزوانيَّات، ص٦٠.

٢) المرجع نفسه، ص٦١.

٣) مقابلة مع الشيخ سعود بن علي الخليلي بتاريخ ٢٠١٦/٢/١١م.

وأحسنت منيرة البطرانية إلى كلِّ فقير وطفل في منطقة "عقر نزوى" عن طريق توزيع المال عليهم بين الفترة والأخرى، وأوصت أن يوزَّع مالها بعد وفاتها على فقراء نزوى ومساجدها، وأوصت -أيضا- ببناء مساجد للعُبَّاد في منطقة "الغنتق" بنزوى، وترميم المساجد القائمة سابقا في المنطقة، وتقديم وجبة إفطار الصائمين في عدد من مساجد نزوى، وأوصت بمزرعتها وثلاثة "آثار" ماء تقسَّم لمنفعة الناس في كلٍّ من العقر وسعال وخراسين وحارة الوادي- وهي كلُّها من ضواحي مدينة نزوى وحاراتها[1].

خاتمة:

يتَّضح من خلال الدراسة أنَّ لأسرة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي دورا كبيرا في إعداده قائدا غُرس في شخصيَّته حبُّ اكتساب العلم، والمثابرة، والاهتمام بالمرأة، وتقدير مكانتها المجتمعيَّة. فقد شكَّلت والدته الكثير من ملامح شخصيَّته؛ لأنَّها امرأة قويَّة الشخصيَّة وكريمة؛ فعزَّز ذلك من ثقة الإمام بنفسه، واهتمامه بهندامه ومظهره، فلا يُرى إلاَّ وهو في لباس نظيف وهيئة بهيَّة. وأخذ الإمام محمَّد عن والدته الكرم، وحبَّ العطاء، والمصابرة على المرض، وتحمُّل الآلام؛ فاتَّصف الإمام بالصبر، والتجلُّد، وعدم إظهار حزنه أو إحساسه بالمرض أمام الآخرين؛ فحين فقد ابنته الوحيدة عائشة لم يُقم لها عزاءً، ومنع النساء من القيام بالعزاء، وشغل الإمام وقته بمهامِّ الإمامة وأعمالها اليوميَّة؛ حتَّى يتناسى حزنه العميق على فقد ابنته.

وتعامل الإمام بلطف مع المرأة، وراعى نفسيَّتها؛ فلا يوجد أيُّ أثر أو رواية تشير إلى أنَّه كان يتعامل بعنف مع نساء عائلته، أو مع أيِّ امرأة أخرى من نساء المجتمع، بل كان هادئ الطبع مع الجميع، يتكلَّم بصوت هادئ متَّزن. وقد سعى الإمام أن يكون لزوجاته دَوْرٌ في العمليَّة التعليميَّة؛ فأوكل لهنَّ مهمَّة الاهتمام بالأطفال الصغار من طلاَّب العلم، ومتابعة احتياجاتهم اليوميَّة، وعملت زوجتاه على تثقيف نساء نزوى وتعليمهنَّ الجوانب الفقهيَّة الخاصَّة بالمرأة وشؤون الأسرة.

١) السيفي: نساء نزوانيَّات، ص٦٣.

وكان الإمام محمَّد لا يحتجب عن النساء، بل يتيح لهنَّ الفرصة للقائه، ومناقشته سواء في الأمور الفقهيَّة أم فيما يتعلَّق بشؤون حياتهنَّ. وكانت النساء بدورهنَّ يحرصن على السلام على الإمام والترحيب به أو تهنئته بالأعياد والمناسبات السعيدة. وقد ترتَّب على احترام الإمام محمَّد الخليلي للمرأة ظهور عدد من النساء الفقيهات في عصره، وأدركت نساء المجتمع أهمِّيَّة أن يكون لهنَّ دور في خدمة المجتمع، وتثقيف بنات جنسهنَّ.

المصادر والمراجع:

- البطاشي، سيف بن حمود بن حامد: إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، مكتبة السيد محمَّد بن أحمد البوسعيدي، السيب، ١٩٩٣.
- الحارثي، سعيد بن حمد: اللؤلؤ الرطب في إبراز مستودعات القلب، (الكتاب بدون بيانات).
- الحارثي، سعيد بن حمد: زهر الربيع في السعي لإرضاء الجميع، (الكتاب بدون بيانات).
- الحارثي، محمَّد بن عبد الله: موسوعة عُمان الوثائق السرية، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، المجلد٣، تنامي مطامع شركات النفط البريطانية ١٩٤٦-١٩٥٥م، بيروت، ٢٠٠٧م.
- الخصيبي، محمَّد بن راشد: شقائق النعمان على سموط الجمان،ط٢، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ١٩٩٤م.
- الخليلي، سعود بن علي: كلمة، صفحات من تاريخ عُمان، ط٢، دار أبعاد، بيروت، ٢٠١٥م.
- الراشدي، حمود بن عبد الله: السيرة الذاتية للإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، بحث مقدم لندوة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي ودوره الحضاري والعلمي في عُمان ١٤-١٦ مارس ٢٠١٦م، جامعة نزوى.
- الراشدي، مبارك بن عبد الله: الشيخ العلاَّمة سعيد بن خلفان الخليلي وفكره، ط١، ٢٠٠١م.

- السالمي، عبد الله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، السيب، ٢٠٠٠م.
- السالمي، محمَّد بن عبد الله: نهضة الأعيان، دار الكتاب العربي، القاهر، ١٩٨٥.
- السيفي، محمَّد بن عبد الله: النمير، مكتبة وتسجيلات غاية المراد، سلطنة عُمان، ٢٠٠٥م.
- السيفي، محمَّد بن عبد الله: نساء نزوانيات، مكتبة الأنفال، مسقط، ١٤٢٥هـ.
- الشكيلي، إبراهيم بن محمَّد: مدرسة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وأثرها في نشر العلم، مكتبة الأنفال، مسقط، ٢٠١٣.
- الشيباني، سلطان بن مبارك: معجم النساء العُمانيات، ط١، القسم الأول، مكتبة الجيل الواعد، مسقط، ٢٠٠٤م.
- العبري، عبد الله بن مبارك: الفتح الجليل من أجوبة أبي خليل، بحث مقدم كمتطلب تخرج بمعهد القضاء الشرعي والوعظ والإرشاد، ١٩٩٥م – ١٩٩٦م.
- غباش، حسين عبيد: عُمان، الديمقراطية الإسلاميَّة تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث (١٥٠٠م- ١٩٧٠م)، ط٤، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٦.
- مجموعة باحثين، سمائل عبر التاريخ، ط١، المنتدى الأدبي، مسقط، ٢٠٠٨.

المقابلات:

- الخليلي، سعود بن علي، بوشر، بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠١٦م.
- الراشدي، حمود بن عبد الله، ولاية المضيبي، بتاريخ ٥/ ٢/ ٢٠١٦م.
- الراشدية، حليمة بنت هلال بن سعيد بن حامد، ولاية سمائل، ٢٤/ ١٢/ ٢٠١٥.